

الهلص الثالث

أبو عمران الففجومي
أول مفكر في تأسيس دولة المرابطين*

د. عبد القادر زمامة

* مقال منشور بمجلة البيئة، عدد: 3 سنة 1962 م.

ما يزال حادث تأسيس دولة لمتونة في وسط الصحراء الإفريقية أوائل القرن الخامس الهجري، من الأحداث التاريخية الخطيرة التي قلبت الأوضاع في جزء كبير من القارة الإفريقية. غير أن الغموض الذي اكتنف هذا الحادث وندرة المصادر التاريخية التي تسجل المراحل الأولى من تاريخ هذه الدولة، جعل الباحثين يرحمون بالغيب، ويولدون العلل والأسباب والفروض توليداً لا يليق بمنهجية البحث التاريخي التي تعتمد قبل كل شيء على المصدر الموثوق به أو العلل المعقولة.

والأيام لا تزيد الباحث إلا اقتناعاً، بأن هذا الغموض التاريخي سوف يتجلى كلما ظهر في عالم البحث مصدر مخطوط أو مطبوع من الكتب العديدة التي ألفت على عهد المرابطين بأقلام مغربية أو أندلسية، والتي نرى النقل الكثير عنها أو نرى أسماءها مُسطرة في تراجم بعض رجال ذلك العصر.

وقد اقترن تاريخ تأسيس هذه الدولة بتاريخ علم من أعلام ذلك العصر، وهو الشيخ أبو عمران الغفجومي الملقب في كتب التاريخ والطبقات «بالفاسي»، فقد اعتاد المؤرخون⁽¹⁾ أن يصفوا لنا اتصال يحيى بن إبراهيم الكدالي بأبي عمران الفاسي في القيروان، ذلك الاتصال الذي أدى إلى أن يبعث أبو عمران بكتاب إلى واجاج⁽²⁾ بن زلو اللمطي ليختار أحد طلبته للقيام بمهمة الإرشاد في الصحراء مع يحيى بن إبراهيم.

(1) المغرب للبكري (ص 164) ط. دي سلان الجزائر 1911م، والاستقصا (2/5) ط. دار الكتاب،

والحلل الموشية (ص: 9)، ط. الرباط 1936، والقرطاس (2/8) من طبعة الرباط 1936م.

(2) التشوف (ص: 66) ط. الرباط 1958، وسوس العالمية (ص: 17)، ونبد تاريخية في أخبار البربر

(ص: 69)، طبعة الرباط 1934م.

ويقع الاختيار على عبد الله بن ياسين⁽¹⁾ الذي كان دخوله نقطة تحول في تاريخ الإسلام بإفريقية، حيث رأت أقطار إفريقية الغربية والوسطى - لأول مرة - نور الحضارة، والحق، والإيمان، ثم كان دخوله إلى المغرب على رأس المرابطين إيذاناً ببزوغ عهد جديد ودولة جديدة في تاريخ هذه البلاد.

ويجدر بنا أن نبحث فيما بين أيدينا من مخطوطات ومطبوعات عن معالم حياة أبي عمران الغفجومي، والدور الذي قام به في فاس والقيروان كعالم من علماء المذهب المالكي، ذلك المذهب الذي كان له وضع خاص ورسالة خاصة في ذلك العصر، نجد صداها البعيد في السياسة والدين في جل المصادر التي بين أيدينا، كرياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر عبد الله المالكي المتوفى سنة (438هـ)⁽²⁾، ومعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد الدباغ المتوفى سنة (695هـ)، وقد ذيلها قاسم ابن عيسى بن ناجي المتوفى سنة (837هـ)⁽³⁾، وغيرها من كتب التاريخ والطبقات.

وأول نص تاريخي يلفت نظرنا في البحث عن حياة أبي عمران، هو ذلك النص العظيم الأهمية الذي يتحفنا به صاحب بيوتات فاس في القديم، حيث يقول عاطفاً على بيوتاتها: ومنهم بيت بني أبي الحاج القرشي، بيتهم بيتٌ حسب وثروة، وفقه،

(1) انظر مدارك عياض - مخطوط - والقرطاس (2/ 11)، ونبد تاريخية في أخبار البربر (ص: 12).

ومن الغريب أن صاحب الحلل الموشية يحدثنا (ص: 10) عن دخول عبد الله بن ياسين إلى الأندلس وإقامته بها سبع سنوات في طلب العلم، غير أن مؤرخي الأندلس لا يكادون يذكرون شيئاً عنه. فيما نعلم.

(2) معالم الإيمان (3/ 215).

(3) مقدمة المعالم.

وعلم، وعدالة، ولهم زقاق بفاس يقال له درب أبي حاج، منهم الفقيه الإمام العلامة المدرس المفتي الخطيب الصالح ولي الله تعالى أبو عمران موسى بن أبي حاج القرشي المعروف بأبي عمران الفاسي، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهل فاس العاملون عليها لمغراوة، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة (430هـ)، وهو الذي ندب أبا زكرياء يحيى بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي إلى طغاة من أهل المغرب «كذا»، وجهاد أهل بورغواطة من السوس الذين تقدم ذكرهم. وتولى بعضهم القضاء بفاس في أيام لمتونة وفي غير فاس من المغرب⁽¹⁾....

فهذا النص الفريد في بابه يظهر لنا معالم من نسبه القرشي وبيته ذي الوجهة والعلم والثراء في فاس. ومنصبه في العلم والفتوى، وموقفه السياسي من الوضع القائم في البلاد أيام دولة زناتة (مغراوة وبني يفرن) التي كانت المحرك الأساسي لما جد في المغرب من أحداث منذ انحلال دولة الأدارسة، وطمع كل من دولة بني أمية في الأندلس، ودولة العبيدين في تونس في سد الفراغ واستغلال العصبية.

ويظهر أن ميلاد أبي عمران كان بفاس موطن أسرته المجيدة، وذلك سنة (365هـ) بناء على ما عند ابن فرحون في الديباج⁽²⁾ حيث نص على تاريخ الوفاة وهي (430هـ) وقال: وهو ابن خمس وستين سنة، أما الدباغ في معالم الإيمان فيجعلها

(1) بيوتات فاس في الكبرا (ص 44-45)، وقد اختصر هذا النص أبو زيد الفاسي في كتابه المعروف بالبيوتات الصغرى - مطبوع على الحجر بفاس.

(2) الديباج المذهب (ص 344).

سنة (368هـ)⁽¹⁾.

فقد عاصر منذ صباه الأحداث الخطيرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجوم الصنهاجين خلفاء العبيدين، والعامريين خلفاء بني أمية، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك أخرى... وفي طليعتهم زيرى بن عطية المغراوي، ويدو ابن يعلى اليفرنى، وأبو البهار الصنهاجي⁽²⁾، ففي هذا الظرف الحرج المتقلب ولد وعاش سنواته الأولى.

واستناداً على نص بيوتات فاس، يكون أبو عمران شبّ وترعرع في وطنه الأول، ونال مكانة سامية في العلم والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تضايق من وجوده رجال السلطة، فخرج من وطنه مهاجراً كارهاً للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد.

ونحن نعلم رسالة العلماء في ذلك العصر ونعلم أنهم كانوا رجال علم ودين وسياسة وجاهير، ونلاحظ في كل من فاس والقيروان أن العلماء كانوا يتخذون من المذهب المالكي الأداة الفعالة لمجابهة رجال السلطة والنفوذ، وأنهم كانوا في نظر العامة زعماء وقادة وأولياء الله، يلتقون حولهم، ويتأثرون بأفكارهم ومواعظهم، ويتعصبون لأرائهم، كما نعلم أن هذه - المذهبية - كان لها أثر بعيد المدى في تاريخ المغرب العربي، في قيام الدول وسقوطها، وفي الأحداث المتسلسلة، والأفكار، والعقائد السائدة.

وقد رحل أبو عمران إلى قرطبة، والقيروان، وطلب مزيداً من العلم والمعرفة

(1) معالم الإيمان (3/ 204).

(2) انظر نبذة تاريخية (ص 25-28).

بالدين وأصوله، وحجّ حجّات عديدة⁽¹⁾.

كل هذا وقع قبل سنة (399هـ)، فإذا لاحظنا أنه ولد سنة (365هـ) بفاس، يكون صاحبنا قد نبغ نبوغاً مبكراً، وقام بعدة رحلات إلى الأندلس وإفريقية والشرق، وهو في عنفوان الشباب.

ولا يستبعد أن يكون قد رحل في سنيه المبكرة إلى القيروان والأندلس لطلب العلم، ورجع إلى فاس ومكث بها يؤدي رسالته، فاصطدم بعمال مغراوة وسوء تصرفهم في الرعية، والذي يؤكد ذلك أن بعض الشيوخ الذين أخذ عنهم في القيروان والأندلس قد تقدمت وفاتهم كعبد الوارث بن سفيان، وأحمد البزاز⁽²⁾.

ونجده سنة (399هـ) في بغداد يأخذ أصول الدين عن أبي بكر الباقلاني الذي يعجب به غاية الإعجاب ويقول فيه قوله الشهيرة:

«لو اجتمعت في مدرسة أنت وعبد الوهاب بن نصر، لاجتمع فيكما علم مالك بن أنس، أنت تحفظه وهو ينصره، ولو رآكما مالك لسرّ بكما»⁽³⁾.

ولا ندرى المدة التي قضّاها أبو عمران في الشرق متنقلاً بين عواصمه، غير أننا نستطيع أن نقول أنه نال تقدير وإعجاب إخوانه العلماء في مختلف الأمصار التي زارها، بدليل أننا مازلنا نطلع في كثير من المعاجم على ترجمة أو إشارة عابرة لأبي عمران..

(1) معالم الإيمان (3/ 199).

(2) الصلة لابن بشكوال عدد (817 و 182).

(3) معالم الإيمان (3/ 200).

ويحط رحاله بالقيروان، وهي إذ ذاك مركز عظيم الأهمية من الناحيتين الثقافية والسياسية، وهي أيضاً مركز الصراع العنيف بين الملل والنحل، فهناك الشيعة والاعتزال، كما أن هناك الحنفية والمالكية.

والحنفية المذهب الرسمي الذي كان لدولة بني الأغلب، والتشيع المذهب الرسمي الذي كان لدولة الفاطميين، وخلفائهم الصنهاجيين أول الأمر، والمالكية مذهب العلماء ورجال الفكر المعارضين لسياسة الدولة سراً وعلناً إذ ذاك.

وبالطبع كان أبو عمران في صف مذهب ينشره في طلبته الوافدين عليه من أقطار المغرب والصحراء والأندلس، كما أنه كان متقبضاً عن رجال السلطة والحكم، يعارضهم ويؤلب الناس ضدّاً عليهم.

وقد بعث إليه المعز بن باديس (406-453 هـ)⁽¹⁾ يستفتيه في مسألة مع طبيبه وخاصته أبي عطاء اليهودي، فما كان من أبي عمران إلا أن غضب غضباً شديداً، وأسمع اليهودي ومرسله الملك ما يكرهان، وأمر بأن يعلم اليهودي بالعلامة التي كانت معروفة عند أبناء ملّته في ذلك العصر، وهي أن يصبغ طرف عمامته بلون خاص، ويصل الطبيب إلى سيده، فيقول: ما ظننت أن بإفريقية ملكاً غيرك إلا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد فما أدركني الفزع ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا. فقال له المعز بن باديس:

«إنما فعلت ذلك لأريك عز الإسلام وهيبة علماء المسلمين، وما ألبسهم الله من

(1) المؤنس (ص: 79)، ط. تونس 1350.

شعائر الأولياء، لعلك تسلم»⁽¹⁾.

وقد شاهدت القيروان في هذه الظروف أكبر تحول في تاريخ إفريقية؛ إذ أن الصراع بين السنة والشيعة من جهة، وبين المالكية والحنفية من جهة أخرى، قد انتهت بانفجار عظيم أدى إلى ثورة عارمة، فقد ثار أهل القيروان بقيادة علمائهم وشيوخهم وقتلوا أهل التشيع، واستعملوا نفوذهم في الخاصة والعامة، فلم يسع الملك المعز بن باديس الصنهاجي إلا أن يعلن هو الآخر انسلاخه من نفوذ الفاطميين وتشيعهم، وأن المذهب الرسمي للدولة هو المذهب المالكي وزاد أن أعلن الطاعة لبني العباس⁽²⁾ فيما بعد.

ولا نستطيع - بناء على ما بأيدينا من مصادر - أن نعين النصيب الذي كان لأبي عمران في هذه الحركة، غير أن الذي ينسجم مع طبيعة الأشياء، أن يكون أبو عمران من العاملين على نصرته المذهب المالكي، بكل ما يستطيع من وسائل لا تتنافى مع إيمانه وتقواه.

والمؤرخون يبنون نتائج على عمل المعز في مقدمتها تسليط الفاطميين قبائل الأعراب لاكتساح دولة الصنهاجيين، والقضاء على ما شيدوه من معالم الاستقرار والحضارة هناك⁽³⁾.

غير أن هذا كله كان بعد موت أبي عمران، أما في حياته فقد شاهد عظمة القيروان وأسهم فيها، كما شاهد أيام المعز الأولى التي كانت غرة في تاريخ الصنهاجيين.

وفي القيروان، كان أبو عمران زعيم المالكية، وشيخ الفتوى، والعلوم الإسلامية،

(1) معالم الإيمان (3/ 201-202).

(2) المؤنس (ص: 76).

(3) نفس المصدر.

ووفدت عليه وفود الطلبة من كل صوب.

ويهمنا هنا بصفة خاصة أن نقول: أن واجاج بن زلو اللمطي الذي كان شيخ عبدالله بن ياسين، هو من جملة هؤلاء الطلبة الذين أخذوا عنه بالقيروان، واستفادوا من علمه وخلقه وسلوكه⁽¹⁾، قبل أن يرجع إلى سوس ويؤسس مدرسته هناك. وهنا يلفت نظرنا نص آخر عند صاحب بيوتات فاس في القديم حيث يقول: أن وجاج هذا أخذ عن أبي عمران العلم في مدينة فاس نفسها قبل أن يهاجر أبو عمران إلى القيروان⁽²⁾.

وهذا غير مستبعد، كما أنه ليس بمستبعد أن يأخذ عنه في كل من فاس والقيروان. ويحدثنا صاحب معالم الإيمان⁽³⁾ عن رحلة أخيره قام بها أبو عمران الفاسي إلى الشرق سنة (426هـ)، وأخذ فيها عن عبد الله بن أحمد الهروي بمكة المكرمة، ورجوعه بعدها إلى القيروان، ليقضي هناك ما تبقى من حياته الحافلة.

فمتى اتصل به يحيى بن إبراهيم الكدالي، ذلك الاتصال الذي يصفه لنا صاحب بيوتات فاس وصفاً دقيقاً، ويرتب عليه من النتائج ما قدمناه في النص الأول الذي قدمناه بين يدي هذا البحث؟

إن صاحب الحلل الموشية يجعل هذا الاتصال سنة (440هـ)⁽⁴⁾، بينما يجعله ابن

(1) التشوف (ص 66).

(2) بيوتات فاس الكبرا (ص 28).

(3) معالم الإيمان (3/ 203).

(4) (ص: 9)، ط. الرباط.

عذارى المراكشي سنة (445هـ)⁽¹⁾ وصاحب القرطاس سجعله سنة (427هـ).

ولاشك أن رواية القرطاس أصح وأثبت، نظرا لأن وفاة أبي عمران كانت سنة (430هـ)⁽²⁾.

ونلاحظ أن صاحب معالم الإيمان لم يذكر لنا شيئا عن هذا الاتصال في الترجمة التي خصها لأبي عمران في كتابه المفيد، وكذلك صاحب التشوف، بينما يذكرها كل من البكري في المغرب، وابن عذارى المراكشي، وصاحب الحلل الموشية، والقرطاس، وصاحب بيوتات فاس، وينفرد هذا الأخير بتفاصيل لها أهميتها كما قدمنا في النص المنقول عنه.

والمؤرخ الرحالة البكري أقرب المؤرخين إلى عصر أبي عمران، فقد كان يكتب كتابه المغرب سنة (460هـ)، أي: بعد موت أبي عمران بنحو ثلاثين سنة، وقد سجل هذا الاتصال في شيء من التدقيق والإطناب، وتابع حديثه عن يحيى بن إبراهيم واتصاله بوجاج (فقيه ملكوس؟)، ودخوله مع عبد الله بن ياسين إلى الصحراء، وما صادفه هذا الأخير من صعوبات أدت به إلى الرجوع إلى شيخه وجاج لإخباره بحقيقة الوضع في الصحراء، ثم رجوعه إليها مرة ثانية لأداء رسالته⁽³⁾، والمادة التاريخية التي نجدها عند البكري في هذا الموضوع عظيمة الأهمية لا يجدها الباحث عند المؤرخين الآخرين.

بقي أن نرجع إلى نص صاحب بيوتات فاس، الذي أثبت فيه أن أبا عمران الفاسي

(1) (242/3).

(2) معالم الإيمان (204/3)، وجذوة الاقتباس (ص 230)، والديباج (ص 144).

(3) المغرب للبكري (ص 104-166).

هو الذي ندب يحيى بن إبراهيم إلى حرب طغاة زناتة وبورغواطة، واستناداً على ذلك يكون أبو عمران - وهو بعيد عن وطنه - قد خطط الخطوط الأولى مع هذا الرئيس البربري لقيام دولة مغربية قوية الأسس صحيحة العقيدة، تكون لها الصلاحية للقضاء على هذه الفوضى السياسية والعقدية التي تحبّط فيها المغرب عدة سنوات، حتى صار ميدانا لرجال العصبيات والأهواء يقودون أبناءه إلى حيث لا يعرفون المصير.

والذي يدرس الوضع السياسي في المغرب في النصوص التي بقيت في كتاب «المغرب» لأبي عبيد البكري، ويرى ما فيها من أخبار المتنبيين وما وضعوه من أساطير وشعوذة، وأخبار المتغلبين في الشمال والجنوب، وما أدت إليه أعمالهم من تخريب وتحطيم، يدرك أهمية الخطة السياسية التي خططها أبو عمران مع الزعيم اللمتوني الذي زاره في القيروان.

فأبو عمران - والنصوص تؤيدنا - هو المخطط الأول لبرنامج الدولة المرابطية، ولئن حالت وفاته سنة (430هـ) دون أن يشاهد ثمار غرسه، فإن التاريخ قد سجل صنيعه بمداد الفخار والإعجاب.

فالدولة المرابطية التي خططت أهدافها في القيروان بين أبي عمران والأمير يحيى بن إبراهيم، كانت استجابة لضرورة حتمية يملؤها الضمير الديني الذي يجعل من الإسلام الدعامة الكبرى والرابطة الوثقى لقيام الوحدة بين المسلمين، كما كانت أيضا استجابة للوعي الذي دبّ في نفوس الأفارقة المسلمين للوحدة، والتكتل تحت شعار عقيدة واحدة ودولة واحدة.

لا فرق بين سكان الأقاليم الصحراوية الذين يقطعون مجاهل افريقيا ويرتبطون

بجيرانهم بروابط الدين والتجارة والمصالح المشتركة، وبين سكان الأقاليم الشمالية الذين مزقت وحدتهم عدة عوامل أوهنت قواهم وصرفتهم عن أداء رسالتهم في الوطن الإفريقي المتعطش إلى مزيد من الحضارة والاستقرار.

ولقد كان للعمل المشترك الذي قام به كل من أبي عمران وعبد الله بن ياسين بالاشتراك مع الأمراء اللمتونيين؛ الأثر الفعال في بعث قبائل الصحراء بعثاً ملاًها إيماناً برسالة الإسلام في الوطن الإفريقي، وفتح أعينها على الحقيقة التي لا يزيدنها التاريخ إلا تصديقاً وتثبيتاً، وهي أن الإسلام كان وما يزال هو العامل الأول في حضارة افريقيا.

وقد ضرب الأمراء المرابطون المثل العليا في الوعي والغيرة والتضحية والإيثار والاستقامة؛ لأنهم كانوا تلاميذ مدرسة كونتها غيرة أبي عمران وتضحية ابن ياسين. ولا أودّع أبا عمران دون أن أشير إلى أن كتب الطبقات والتاريخ تنسبه إلى بني غفجوم، وهم فرع من زناتة القبيلة البربرية الشهيرة، باستثناء صاحب بيوتات فاس الذي ينسبه إلى قريش، ولم أر ذلك لغيره.



